مجموعة قصصية

لحظة اغتيالي

آمال الشاذلي

إهداء

إلى ..... أحفادي الذين لن أراهم ....

لا تجعلوا اليأس يتسلل إلى قلوبكم .... أحبكم

آمال

عالم يتفجر بدراما المفارقة

د. محمد حسن عبد الله

تروقك القصة الأولى ، تدهشك القصة الثانية ، تتحدى توقعك القصة الثالثة .... تعيدك القصة الرابعة إلى الأولى من جديد .

فقد أيقنت أن لهذه الكتابة مذاقاً خاصاً ، وأساساً فكرياً يتكرر دون أن يكون نمطياً .

كروافد النهر حين تنطلق مؤكدة خصوصيتها ، ووحدة منبعها دون أن يتشبه فيها رافد مع آخر .. والماء هو الماء .

هكذا قصص آمال الشاذلي .

لقد استبعدت هذه القصص سؤالين جاهزين كانت تبدأ بهما – أو تنتهي – القراءة النقدية لقصص السيدات ، وترتبط بمدى التوفيق في الجواب (الفني) عنهما درجة الصدق في التجربة ، وخصوصية التصوير والتعبير .

السؤال الأول ...... عن المرأة ، وهل طبيعتها الخاصة ، وتجاربها ، ولغتها المميزة بمفرداتها وطريقتها انعكست

في قصصها ، وظهرت في أسلوبها ، ورؤيتها للأشياء ، وللناس ؟!..

السؤال الآخر عن البيئة ..

فنحن نعرف أن هذه الأديبة تعيش في الإسكندرية .. وهي بيئة بحرية ؛ ومن ثم يجب أن نتوقع ... وأن يصدق توقعنا ، أن البحر ، والرمل ، والسمك ، والزرقة ، وأصوات البواخر ، ولصوص الميناء ، والشماسي الملونة ، والسراويل السوداء المنتفخة ... مفردات ، وصور ، وأشياء واسعة الانتشار في القصة السكندرية ، وإلا فإن الكتابة لا تنتمي إلى جنس الولادة الطبيعية !!!

هذان السؤالان اختفيا مؤخراً ... لا يجرؤ " ناقد " على طرحهما ..
وقد أطلق هذا الاختفاء العنان للمرأة الكاتبة ، التي ارتقت بمستوى الرؤية إلى المشكلة الإنسانية أو الاجتماعية .. وأخذت تقرأ هموم الوطن بوعي فكري يتجاوز نوازع النوع الإنساني (النسوي) ، وحدود المكان (الإسكندرية)
قد تجد شيئاً من هذا أو ذاك ، ولكنه .. لا أقول غير مقصود ؛ وإنما ليس ما يميز كتابة آمال الشاذلي .. فماذا يميز الكاتبة إذن ؟

تميزها الكثافة ، وما تؤدي إليه من الوحدة ، وما تؤكده من الشعرية .. فالقصة عندها في جزء من الصفحة ، فإذا طالت فإنها لن تصل إلى الصفحتين ..
والحجم في ذاته ليس فضيلة ؛ إلا إذا كان طريقاً إلى كثافة المعنى ، ووحدة المشهد ، واختزال الشخصيات ،

والاستغناء عن ثرثرة الحوار ، وتجنب الإسراف في الوصف ، واستخدام الكلمات استخداماً رشيداً يفجر فيها أقوى طاقاتها .

نقرأ قصة " رماد أبيض " فيستقبلنا الإيقاع المتكرر : " لا تنس شراء الخبز عند عودتك " .. التكرار " يضبط مراحل الحركة والحدث " ، ويمهد لتقبل النهاية منذ جملة البداية ، ويؤكد " الوحدة " عزيزة المنال في الأدب ..
قد نجد شيئاً من التفصيل في المونولوج عن عبد الرحيم وما حدث له .. هو تفريع ، ولكنه مثير للتوقع ، يوسع من احتمالات الختام الذي لا يكون الأسوأ ، وإن يكن فاضحاً للواقع الاجتماعي ؛ حين تقول في قصة أخرى إن أهل القرية أصبحوا " بائعين للاشيء ، وكل شيء " ... فقد كثفت في عبارة مقطرة الفقر وضحالة الواقع وترديه .

التشكيل بالمفارقة ميزة أخرى ، وسمة فلسفية ، وموقف من الحياة في هذه القصص ، وهو ما عنيته من عودة القارئ إلى القراءة مرة أخرى لنفس القصص ..
لأنه يكتشف وحدة التشكيل التي يصنعها ، دون أن تكون إحداها تكراراً للأخرى ..
وهذا التشكيل بالمفارقة نوع من الفلسفة الساخرة ، وإعلان عن غياب المنطق والعدل ، وعجز الإنسان عن فهم الواقع والتعامل معه .
وقد تمتد المفارقة من التشكيل الكلي للقصة إلى بعض تفاصيلها ..
مثلاً في قصة " الطابور " نجد رجلاً يحمد الله على أنه " يادوب يفك الخط ، ومراتي ما بتفكهوش خالص ، والحمد لله لم يرزقني الله بأولاد " ... وقد وجد في هذا النقص سبيلاً للنجاة من لعنة فاتورة التليفون ... بعبارة أخرى وجد في النقص كمالاً وسعاد نسبية .

الكابوس طابع يلون أكثر القصص ، وهو كابوس لا يقصد إثارة مخاوفنا ؛ بل تنبيه وعينا بما يتهدد حياتنا الاجتماعية ، والسياسية ، والنفسية .
مع هذا أتاحت للنفس الرومانسي الحالم والآمل واليائس أن يأخذ مساحة وإن تكن محدودة .
وهذا دليل على أن الكاتبة لا تتعسف مع خطرات فكرها فتقسرها قسراً على سلوك الطريق الواحد الذي يؤطر

جملة تجاربها (الكثافة الشعرية – التشكيل بالمفارقة – الطابع الكابوسي).
فقد استبقت في حياتنا بعض إمكانات الرضا ، وهو مفتاح الاستمرار ، وإلا فإن أدبها يكون دعوة لرفض الحياة .

اللغة الرمزية إحدى عوامل التكثيف ، وهي أقوى سند لطابع الشعرية الذي أشرت إليه في البداية .
إنه يحتاج إلى عناية خاصة ؛ لأن الرمز عندها يتجاوز اللغة (اللفظ وعلاقات الكلام) إلى التشكيل والرؤية .
وهو ما نكتفي بالإشارة إليه في هذا التقديم المختصر لأديبة جادة تستحق أن نقدر جهدها ، وأن نتلقاه بكل الاهتمام .

د. محمد حسن عبدالله

حرب الفستق

يتابع بعينيه الجاحظتين .... طائرات الشبح والأباتشي ، وهي تطلق من باطنها أطنان من القذائف والصواريخ ...
يمد أصابعه المكتنزة إلى طبق مذهب أمامه ... يلتقط بعض حبات الفستق والكاجو ..
صفارات الإنذار تنطلق .... تكاد تصم أذنيه ..
صوت أنثوي ناعم يعلن الانتهاء من إعداد الغداء ...
شريط أحمر يمر أسفل الشاشة يعلن عن اندلاع المظاهرات في عدد من عواصم العالم ..
غارة جديدة .. المزيد من القذائف ..
دفس يده في جيبه .. اخرج صورة امرأة عارية .. أخذ يحملق بها .. بصقت على وجهه ..
اعتراه غضب شديد ...
امسك بطبق الفستق .. قذف به .. تحطمت الشاشة .. اندفعت الطائرات تجاهه ..
أطاحت برأسه .. ازداد غضبه ..
التقط بعض حبات الفستق .. وراح يقذف بها الطائرات .

كعادتها ، وفي ميعادها .. أشرقت من عل لتوقظ النيام وتصهر الأحلام .
كل شيء كان يبدو طبيعيًا ؛ مثل كل يوم .. لاجديد .. ماعدا ذلك الإحساس الغامض الذي يجتاحني بأن هناك خطراً ما في الطريق ؛ سيفتك بالقرية وأهلها .! وعلي أن أدق ناقوس الخطر ليحتاط الجميع .. لكن ماذا أقول ؟! من أي شيء أحذرهم ؟! .. زلزال ؟ بركان ؟ فيضان جارف سيأتي على الأخضر واليابس ؟ أم عاصفة هوجاء ستقتلع كل ما سيصادفها ؟ .. لا أعرف .. ! قد يكون الخطر أشد فتكاً من كل هذا مجتمعاً .!
لكن أين أهل القرية ؟ !.. لماذا لم يظهر أحد حتى الآن رغم انتصاف النهار ؟!
أخذت أنادي بعض الأسماء التي أعرفها .. فلم يجبني أحد .!
طرقت الأبواب .. فلم تفتح لي .! لاشيء سوى الصمت .. الوقت يمر .. والوضع كما هو .. صمت وسكون ..
توجهت إلى منزل شيخ القرية ؛ لعلي أجد عنده إجابة شافية .. ولكني وقفت أمام منزله مذهولاً.! فلقد كان بدون باب .. بدون نوافذ.! من أين يدخل ويخرج الرجل إذن ؟!
أهناك سرداب سري ؟ ! أكان يعلم بالخطر ، فآثر أن يقفز على السفينة وحده ؟!
وإذا خاف كبار القوم ؛ فماذا يفعل صغارهم ؟ من يتصدى للخطر ؟

نال مني الإجهاد دون أن أصل إلى إجابة !!. غشى الليل القرية .. صارت جميع الأشياء في عيني ظلاماً دامساً .. جلست تحت شجرة عملاقة ، كأنني ورقة سقطت من أحد فروعها ..غفوت قليلا .. استيقظت على دبيب أقدام آخذاً في الاقتراب مني ! فجأة سطع المكان بالأضواء الناتجة عن الكشافات المسلطة علي ..! نهضت فزعاً ..! اقترب مني بعضهم مكونين بأجسادهم العملاقة دائرة محكمة حول جسدي النحيل ..!

بادرني أحدهم في غلظة : من أنت ؟ ماذا تفعل هنا ؟ !

عقدت الدهشة لساني لبعض الوقت .! بعد أن جمعت شتات نفسي ، أجبت : أنا من أهل القرية ؛ فمن أنتم ؟!!

- نحن أصحاب القرية .. لقد خالفت القوانين .. فلا يجب أن تخرج من دارك بدون أذن منا ..

دفعتني أياديهم الغليظة عبر الطريق الترابي الوحيد الذي يربط قريتنا بالمدينة .. كان ينتظرنا على قارعته سيارة مصفحة لم أر مثلها إلا في الأفلام الأمريكية .!

دفعوني بداخلها ... انطلقت مسرعة . . كان أحدهم يتحدث في جهازه اللاسلكي بلهجة يشوبها الانتصار والزهو .!

أخيراً وقفت السيارة .. هبطنا منها .. دلفنا إلى مبنى زجاجي شاهق ؛ ومنه إلى إحدى الغرف .. استقبلني رجل بشوش بترحاب شديد كأننا صديقان حميمان .. . أشار إليّ في أدب جم لأجلس .. غاص جسدي النحيل في المقعد الوثير .. جلس الرجل بجواري ؛ بدا لي أنه يتعمد ذلك ليشعرني بدنو مكانتي ؛ فلقد كان مظهري شديد التواضع ويظهر مفارقة صارخة .!

حاولت أن أدفع عن نفسي هذا الشعور .!

بادرني الرجل بالأسف لما بدر من رجاله ؛ راجياً مني إغلاق تلك الصفحة .. وفتح صفحة جديدة ، قائمة على التعاون من أجل أمن وأمان القرية ..!

قدم لي عدة هدايا .. آملاً ألا أرفضها ؛ ففي ذلك ما يهدد صداقتنا ..!

حملها عني السائق الأنيق .. أوصلني إلى باب الدار ....أخذت أفرغ هداياه .. . استغرقتني تماماً..

ولم أعد أبرح منزلي ...!!!

أحلام على المنحدر

١

يشذب ويهذب من نبرات صوته الأجش .

- كيف حال سعادتك ؟

يرسم على وجهه مزيداً من الاقتضاب .

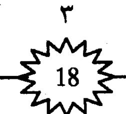
- ....
- وكيف حال الهانم والبك الصغير ؟
- ....
- لقــد رزقــت الأسبوع الماضي بولد ، وأستأذن سعادتك أن أطلق عليه " فايز " تبركاً باسم سعادتك .
- أهذا هو الولد الأول ؟ !
- لا.... الثاني .
- اربــط علــى " كــده " ياحلــيم .. الحالة الاقتصادية للبلد أصــبحت صــعبة للغايــة .. أنــا لو مكانك لامتنعت عن الإنجاب !
- عشمي في ربنا وسعادتك لا ينضب .
- طلباتك !!
- أنا أثقلت على سعادتك .. لكن ما باليد حيلة !
- ادخل في الموضوع يا حليم !

- سعادتك كنت وعدت " أمل " زوجتي بوظيفة على بداية هذا العام .
- ذكرني بمؤهلها !
- ليسانس حقوق دفعة ٨٠.
- لقد مضى على تخرجها ثلاثة عشرعاماً ، ولازالت تريد أن تعمل ...!
- سعادتك عارف أن الشركة أحالتني إلى المعاش المبكر بعد أن تم خصخصتها..
- مفهوم .. مفهوم .. أمهلني شهرين حتى أستطيع أن أجد لها درجة شاغرة .

٢

- انظري يا أمل ... فايز يزداد شبهاً بفايز بك عاماً بعد عام .. نفس الأنف .. العينان ... حتى الشعر المجعد .!
- فخـرك بـتلك القرابة تجعلك ترى أن جميع الناس حولك يشبهونه .!
- لـو كان أحد من عائلتك في مركزه لرأيت أن جميع سكان العالم يشبهونه ..
- مـا الذي عاد علينا من مركزه ، ومن قرابته ؟ ! إن حالنا يـزداد سـوءاً كعـربة ثقـيلة تقف على حافة ربوة شديدة الانحدار .. وأنت لا زلت تمني نفسك بأن قريبك هذا سوف يـنقذ العربة من الانزلاق ، ولكني أتحداك أن يفعل ؛ لأن انحدارنا يزيده ارتفاعاً ، وهواننا يجعله أكثر قوة .

٣



- ....
- لا . . فايز بك سافر .. سيعود بعد أسبوع .
- ....
- لا.. فايز بك عنده اجتماع مع رئيس الوزراء .
- ألا تيئس .. متى تكف عن الذهاب إليه ؟ ! لقد مضى على تخرجـــي أكثر من عشرين عاماً .. انظر إلى الشيب الذي اجتاح رأسينا .. تساقطت أسناننا واحدة تلو الأخرى ...!
- لقــد أضحكتني .. أتظنين أنني أذهب إليه من أجلك .. حقاً أنـــك لساذجة .. ماهي إلا أيام قليلة وينتهي ابننا الكبير من فـــترة تجنيده ، وفايز بك يقترب حثيثاً من سن الإحالة إلى المعاش .
- ألا نستطيع أن نورث أبناءنا شيئاً غير الآمال الكاذبة ...!
- أدع الله أن يكون حظه أفضل من حظك ، ويستطيع أن يجد له درجة شاغرة ، قبل أن يحال على المعاش ..

٤

- كفـــاك شـــراء للجـــرائد والمجلات .. دخلنا لا يحتمل هذا العبث ..!
- أنا لا أعبث يا أمل .. أنا أبحث عن الحقيقة .. لا شئ أريده أكـــثر مـــنها ... ماذا كان ينقصه كي يرتشي ويزج باسمه الذي طالما افتخرت به في صفقات مشبوهة .. إنها مؤامرة دنيئة يا أمل .. حيكت ضدي أنا .. لم يعد لدي ما أفخر به .. لقد استكثروا علي الأمل ...... أمل .. أمل .. أين أنت يا أمل ؟ !

الوقود

- الزواج عفة .. الزواج سترة ..
- أعرف أنه عفة وسترة ، ونصف ديني ، وأيضاً " فلوس " من أين لي بمتطلباته وتبعاته ؟!
- الشقة موجودة .. أنا أيامي في الدنيا معدودة .
- يا أمي .. أنت تقولين هذا منذ سنوات !
- أتتعجل موتي يابن الكلب ! ؟
- أنت التي تعشمينني من حين لآخر !

تضحك كاشفة عن أسنان صفراء غير منتظمة .. يرتمي بقامته السامقة على جسدها المنهك ، تصده بيدها النحيلة .. يلتقطها .. يقبلها .. تدعو له بالهداية وطول العمر ..

يعبث بالريموت .. يحملق في فتيات الكليب الرشيقات الكاشفات عن كل ما لذ وطاب ، ملمحات بأن " يا ما لسه في الجراب يا حاوي " .. آه من ذاك الذي في الجراب ! أيسعفه الزمن ليرى ما به ؟! وكم سيكلفه ؟ ومن أين له ؟!

إنه لم يستطع أن يدخر ولو ثمن دبلتين !

لكن شبابه يؤرقه .. يعذبه .. يؤجج من هذا وذاك تقصعهن واهتزازهن !!

يحلم بهن جميعاً ، وقد التفقن حوله في صراع مرير من أجل الفوز به .. سقط من سقط .. هرب من هرب .. ولم يبقَ إلا " روبي " و "نانسي " ...

ظلتا تتناطحان في عناد لا يلين .. آثر أن يحيد مشاعره رغم ميله الشديد إلى " روبي "
الدقائق تمر عليه ثقيلة .. الانتظار جحيم لا يطاق ..
تناثرت عدساتهن الملونة .. شعورهن المستعارة ، حتى نهودهن وأردافهن طاحت !
ولم يتبقى من الحلم إلا وسادة .

ضجيج الذكريات

فتحت حقيبتها المتواضعة ... دبت يدها المكتنزة حتى قاعها ... عبثت أناملها يميناً ويساراً .. قبضت على غنيمتها ، والعيون حولها محملقة متطلعة ..

ارتدت النظارة الطبية .. تفحصت وجوه تلاميذها الجدد .. تكاد تجزم بتطابقهم مع وجوه العام الماضي وقبل الماضي ، إلا وجهاً واحداً استوقفها بعينيه العسليتين الواسعتين ،وأهدابه الطويلة السوداء ، وشعره الأسود المسترسل في طلاوة ..

اقتربت منه مدفوعة بذكريات رابضة في أعماقها ، تنقض عليها بين الحين والآخر لتفترسها بأنياب حادة .

بصوت متهدج حزين ... سألته :

- ما اسمك ؟.
- مازن .
- مازن أيه ؟
- مازن عمر الفوال .

دارت رأسها آلاف المرات ...

هبت الذكريات من مكامنها لتعصف بها عصفاً ..

كم كانت ضحية سذاجتها .. صدقت كل حرف نطق به .. سدت أذنيها عن كل نصيحة ..

ترامت إليها الأصوات ناعمة .. أبلة .. أبلة .. الجرس ضرب .!

الدموع تنسال من عينيها كأنها استطاعت أخيراً أن تعبر حاجز السنين المنيع ، فإذا بها متدفقة حارة لامعة كحبات الزجاج ..
هالتها دموعها .. فكم تمنتها واستجدتها .. فأبت وتمنعت .. جاش صدرها بأحاسيس توهمت أنها ماتت .. تلاشت . . فإذا بها قابعة ، متربصة ، متوثبة .
لا زالت عشرات الأصوات تصر على قرع أسماعها .. أبلة .. الحصة خلصت .. الجرس ضرب !
كفكفت دموعها .. التقطت حقيبتها .. اندفعت خارج الفصل ، متجاهلة نظرات المدرسين والمدرسات ، المتناثرين والمتناثرات بين الفصول والطرقات ..
خلال دقائق .. عم الهدوء بعد أن سكن كل منهم في حصته التالية ..
التقطت الطبشور .. بخط جميل دونت التاريخ :
السادس والعشرون من سبتمبر عام ألفين وثلاثة .
وفي منتصف السبورة " لغة عربية " .
ثم ما لبثت أن غابت السبورة خلف سحب الذكريات الداكنة ..
الأبدان ساكنة .. العيون تنتظر وترقب ، متحفزة لتلبية ما يند عنها من إشارة أو كلمة ..
جلست منهكة .. شاردة .. لا يشغلها سوى سؤال واحد ، أخذ يلح عليها : من هي أم الولد ؟!
عيناه لم تكن تكف عن ملاحقة " علا " ولسانه لا يكل من مدح " عبير " وقلبه ينبض بحبها !
قاطع شرودها سؤال من أحدهم :

- حضرتك تريدين كم كراسة ؟
- أربعة .. تعبير ، واجب ، إملاء ، حصة .

ترامت إليها عدة أصوات غير متناغمة :

- ولون الغلاف يا أبلة ؟
- التعبير أحمر ، الواجب أزرق ، الإملاء أصفر ، الحصة اتركوها كما هي

كلما همت بالحديث .. تنازعها الماضي بعنفوانه ..

تزوج ... هنأ بحياته .. تركها تتخبط في صحراء الغدر .. لا تنسى كيف تبدلت رقته ودماثة أخلاقه التي طالما أسرتها على النقيض حينما أفضت إليه بشكوكها وهواجسها ، فإذا به ينفجر كالبركان ، مطلقاً حممه بوجهها ، متملصاً من وعوده وعهوده .. بكل صفاقة مزق ورقة الزواج في مشهد استعراضي ، لا زالت آخر كلماته تقرع أذنيها : " تصرفي ياهانم ، أنا غير مسئول " ... هي أيضاً مزقت الورقة بل مزقت الزمن .. مزقت شرايينها وأوردتها .. صار كل شيء حولها ممزقاً مهترئاً .. الكلمات .. الحروف .. المعاني ..

قلبها صد كل من يحوم حولها ..

لم تعد الحياة سوى قارب بال تنتظر غرقه كل لحظة ..

عزمت على التحرش بالولد .. حتى يأتي إليها مهرولاً متشفعاً .. ترغب أن تراه ، وترى بصمات عشر سنوات على بشرته البيضاء الصافية ، كما لو كانت لم تلفحها شمس ، ولا غشيها يوم ذرات غبار .. قامته الفارهة .. أسنانه المنتظمة الناصعة .. شعره الفاحم المسترسل ..

كان نجماً عن جدارة ... هي أيضاً جميلة .. لكنه جمال أعرج بلا جاه ولا مال ، فصار بلا قيمة .

- أين كراساتك يا مازن؟
- اتفضلي ياأبلة ..

– عملت الواجبات ؟

– نعم .

لا ينقصه شيء . نظيف .. مرتب .. ذكي .. أدواته كاملة .. لا تجد ثغرة واحدة لتضغط بها عليه .. كيف تتربص به أذن ؟!

تعودت عيناها أن تقع عليه كلما دخلت الفصل .. اليوم مقعده خال ، وكذلك اليوم التالي ، والذي يليه ! حينما سألت ... تطوع العشرات كعادتهم متسابقين لإجابتها ... مريض .. استأصل اللوزتين .. قررت وعزمت .. سألت واستدلت .. هالها أنه يسكن بالقرب منها ...

ارتدت أفضل ثيابها .. صففت شعرها .. ضمته بشريط وردي أضفى على بشرتها الخمرية رونقاً وجاذبية .. انتعلت حذاء مرتفعاً بلون الحقيبة .. بدت مكتملة الأنوثة .. واثقة النفس .. استقلت سيارة أجرة حتى لا يفسد الهواء تسريحتها ..

العمارة تبدو أنيقة .. دلها الحارس على الشقة .. يكاد قلبها يقفز بين ضلوعها .. تفصد العرق من جبينها .. تكاد تنفجر باكية .. اجتاحها شعور يحرضها على النكوص عما اعتزمته .. وقفت وجهاً لوجه أمام لوحة خشبية سميكة تأخذ شكل فرع شجرة نحت عليها بخط أنيق : " عمر الفوال " الباب يدل على فخامة الشقة .. كعادته يعشق كل مبهر وأنيق !

سمعت وقع أقدام على الدرج ، ردتها من شرودها ، حثتها على الإسراع بالضغط على زر الجرس ..

دقات قلبها تكاد تطرحها أرضاً ..

فتح الباب ... وأسفر عن رجل متوسط القامة ، خمري اللون ، هادىء الملامح ؛ تتصدر جبهته علامة الصلاة .

- أفندم !
- شقة الأستاذ عمر الفوال ؟!
- أنا عمر الفوال .. تحت أمرك !

لا هنا ... ولا هناك

أتصفح الجرائد كل صباح .
ابحث عن اسمي بين الأموات .
ثم أعود ابحث عنه .... لعله بين الأحياء .
فلا هو هنا .... ولا هو هناك ....
شاهدتها في طريقي ... عجفاء .. مقوسة الظهر ... رثة الثياب .
منكفئة في انهماك شديد على الإسفلت .. تمسحه بكفيها شبراً شبراً ..
اقتربت منها .. سألتها برفق : هل هناك شيئاً سقط منك ؟! ... لم تجبني ولم تلتفت إليّ !
أعدت عليها سؤالي مرة أخرى بصوت أعلى ضاغطة على مخارج ألفاظي ... لكنها ظلت على حالها !
في عودتي كانت لا تزال على وضعها .... لم يتغير شيء ، إلا أنها تقدمت قليلاً عن المكان الذي تركتها فيه .
اقتربت منها حتى التصق جسدي بجسدها ، وأنا أكثر إصراراً على معرفة ما تبحث عنه .

- من فضلك .. دعيني أساعدك .... لم تلتفت !

أمسكت بيديها المعروقتين الجافتين ... فإذا بالدماء تندفع منها بغزارة ...
بسرعة التقطت من حقيبتي مناديل ورقية لأضمد جرحها .
رغم فزعي .. إلا أن عدم مبالاة المرأة أدهشني ... واستوقفني !

حدقت بها ... حدقت أكثر .... وجهها خريطة صماء بلا بيانات ... بلا ملامح ! كالحجر الأملس ... بدون عينين ... بدون أنف ... ليس به فم !

الآن أمر بها آلاف المرات دون أن تسترعي انتباهي ....

حيث يسترعاني هؤلاء الذين اصطفوا بجوارها يبحثون عن ملامحهم .

رماد أبيض

- لا تنس شراء الخبز لدى عودتك .

تفوهت بها في صوت واهن ، متقطع بدا وكأنه جاء عبر آلاف السنين عابراً أنفاقاً رطبة مظلمة ....

كثير النسيان ؛ لذلك تعيدها عليه مراراً في رتابة تضاهي رتابة دقات الساعة :

- لا تنس شراء الخبز لدى عودتك .

لا يحمل هماً ... ولا يرجو من دنياه رجاء سوى إنجاز عمله اليومي الشاق الذي تنوء بحمله الجبال ؛ فما بال قامته المديدة التي تشق الفضاء حولها في غير انتظام ! .. لا يند عنه ما يدل على اختراق كلماتها لأذنيه ... فتكرر وتعيد :

- لا تنس شراء الخبز لدى عودتك .

وهو ... لاه بسعاله وبصاقه تارة ، وتارة أخرى بمطاردة تلك الحشرات الدقيقة ، اللابدة له دوماً بين طيات ثيابه الرثة !

يخفت بصره رويداً رويداً .... دقات قلبه تنبئ بعلة ما ! .... لا هذا ... ولا تلك يشغله ...

ما يشغله فقط ذلك الخدر الذي يسري في ذراعيه ... فماذا لو ... لا قدر الله ... وحدث له ما حدث لعبد الرحيم ! الذي عانى من نفس الخدر ... وإذا به مشلولاً مغلولاً ... يحمله أولاده كل صباح ... يضعونه بجوار سور مدرسة " الأعسر " ؛ ليتسول من تلاميذها

... فإذا هبط المساء .. حملوه قافلين إلى حجرتهم التي تئن بأجسادهم .

يعود صوتها الذي يشهد عليه الزمان بأنه لم يشذ عن وتيرة واحدة ثابتة ثبات الميلاد والموت :

- لا تنس شراء الخبز لدى عودتك .

يبحث عن نعليه ... عثر على واحدة ... وضل طريقه إلى الأخرى ... ينحني ليستطلع أسفل الأريكة ... ينهشه ظلام كثيف ... يمد يده .. يفرد ذراعيه .. تلمس أطراف أنامله حافتها .. ملليمتر واحد أعجزه عن الإمساك بها ...

يتمتم بصوت مضغم بعدة أسماء ، يحملها أبناؤه المتناثرون بين ثنايا الحارة الشديدة الالتواء ...

يتبدد صوته وسط صياحهم ومشاحناتهم مع أقرانهم ... يعود إليها ممسكاً بعصا طويلة .. أخذ يطعن بها الظلام يميناً ويساراً ..

اصطدمت بها .. اختزلت المسافة بينه وبينها .. قبضت يده عليها .. انتعلهما معكوستين ، ومضى ..

متهدلاً .. مطأطأ الرأس .. يخشى قرص الشمس .. يخشى وجوه البشر .. لا يتفرس بشيء .. أذناه الكبيرتان المتدليتان بلا اكتراث هما نافذته على العالم ... هما المصب والملتقى ... بمجرد اقترابه من تلك العربات العملاقة المحملة بأجولة القمح الصلب ؛ يوليها ظهره ... فتلقى الأجولة واحداً تلو الآخر على انثناءة ظهره ، الذي بدا وكأن الطبيعة قد هيأته لذلك !

لا يحصي عددها ... فالعدد لا يهم ... المهم إفراغ العربات من حمولتها .. لتلتهمها أفواه حديدية عملاقة ، تحيلها إلى رماد أبيض ، يأبى إلا أن يغمره من رأسه إلى أخمص قدميه .. فيبدو ورفاقه أشباحاً مسخرة ... تنتظر وترقب صاحب الصوت المنفر يعلن انتهاء العمل .. وقد أعلن وزاد أن " الصراف لن يأتي اليوم " ! أذناه تطن بصوت زوجته :

- لا تنس شراء الخبز لدى عودتك .

يخترق حواري شديدة التداخل مع بعضها البعض ... تنوء بقاذوراتها ورائحتها الثقيلة .. وقد زاد من وطأتها وهج قرص الشمس الذي يصر على مداعبته ؛ وهو عنه عارض .. لاه .. لا يكاد يشعر بوجوده .. لا يضيره ألسنة اللهب المسلطة على جسده .. ولا يضيره إن ولت عنه ..

أخذ موضعه في الطابور الصاخب ، الذي يبدأ من حارة ، وينتهي في أخرى .. تدلت ذراعاه في إعياء ..

أنامله قابضة على جنيه مهترىء .. هو كل ما يملك .. لا يدري عدد الواقفين أمامه .. الأعداد لا تهم .. المهم أن يعود حاملاً الخبز .

يغرس الواقفون خلفه أناملهم في ظهره ..

- تقدم يا حاج إلى الأمام .. أمامك خال !

يسحب قدميه اللتين تمرح بهما الشقوق والأخاديد ... الطابور يزحف كدودة عملاقة !

الصبر .. هو زاده ... هو رياضته الوحيدة التي فرضها عليه الزمن .. يتلوى مع المتلوين .. يزحف مع الزاحفين .. يقترب حثيثاً من الإمساك بغايته .. رائحة الخبز الساخن تنعش آماله ... تداعب صرخة جوع سجينة أعماقه ..

دب النشاط في يمينه ... تتحفز يسراه ..

دفع بالجنيه في يد الآخر .. رده إليه في غلظة :

- إنه بال .. لا يصلح .

الزلزال

أعرف أن الجميع يتقرب إليّ ، ويتودد ليّ من أجلهن ، وليس من أجلي أنا ...
كذابون جميعاً في مشاعرهم نحوي .. من أنا لكي يظهروا لي كل هذا الكم من الاهتمام بي ، واللهفة عليّ ..
إن غبت عنهم يومين أو حتى يوماً واحداً ؛ سرعان ما تتوالى اتصالاتهم ، بل ويتجرأ بعضهم ويأتون إلى منزلي من أجل أن تقع عيونهم النهمة على النهود البارزة والأرداف الراقصة .
أعرف أنهم يلوكون أعراضهن على النواصي وبين المحاضرات وعبر الهاتف .
كلما حاولت الابتعاد ، زاد اقترابهم ، وأتيحت لهم الفرصة أكثر للإطلاع على ما لا أريد لأحد أن يطلع عليه .. .على ما أريد ستره ..
أشعر أحياناً أنهم يتمنون أن أغيب عنهم أو أمرض ..
تنهرني زوجة أبي كلما طلبت منها أن تستر جسدها أمام أصدقائي على الأقل ..! وتبدأ في إطلاق عباراتها المحفوظة عن ظهر قلب " حتعمل عليّ أنا راجل يا أبو ..... " ..
بناتها الثلاث أنصاف عرايا ، لا يسترن أنفسهن حتى عن أبي الذي كثيراً ما ألمحه يمعن النظر فيهن ، بل ويغدق عليهن من الهدايا والنقود ؛ في حين يضن عليّ بحجة أن النقود سوف تفسد أخلاقي .. تؤيده في ذلك زوجته .

ذات يوم .. رأيت إحداهن بين أحضانه ..!!!
لم أدر ماذا أفعل ؟ !
زلزلت الأرض تحت قدميّ .. شل لساني تماماً ..
أطلقت ساقيّ للريح .. ظللت اجري وأجري ..
المشهد يطاردني .. يمسك بتلابيبي ..
حينما نال مني الإجهاد تماماً .. وقفت تحت شجرة .. انتابتني نوبة قيء شديدة ... حينما انتهيت منها ، غبت عن الوعي .
حين أفقت ، تبينت أنني داخل أحد المساجد ... حملني البعض إلى داخله .. اعتنوا بي حتى استرددت وعيي .
شعرت بارتياح شديد .. وأن القدر هو الذي تدخل ليحدد لي المصير والاتجاه ..!
تقرّب إليّ بعضهم بعد أن عرفوا أنني بدون مأوى .. بدون أهل .. قدموا لي يد المساعدة .. فالتقطتها بنهم ، ودون ترو أو تفكير ..
خلعت قميصي وبنطالي ..
ارتديت جلباباً قصيراً أحضروه لي ، مع عصابة رأس ..
أطلقت لحيتي و أطلقت معها غضبي .

بيان عاجل

﴿ إلى جميع المدن الساحلية ... رجاء إخلاء المدن فوراً بأسرع وقت ممكن ؛ هناك موجة عاتية يبلغ ارتفاعها آلاف الأمتار سوف تدهم المدن الساحلية خلال أيام قليلة ، وحسب تقدير العلماء فإنها سوف تبيد كل ما يصادفها حيث تحمل معها سرباً من السفن العملاقة المحطمة سيصطدم بكل ما يقابلها . ﴾

يسود الهرج بين الناس الذين انتابهم الفزع ؛ فأخذوا يهرعون كالفئران في كل صوب واتجاه ناشدين النجاة ....

بيان عاجل رقم (٢)

﴿ إلى سكان المدن الساحلية ... الموجة لا زالت تتقدم ؛ نناشدكم الحيطة والحذر ، كما نناشدكم إغلاق محابس الغاز للتقليل من حجم الكارثة .... رجاء الإسراع . ﴾

ترك الأصحاء المرضى ... ترك الأقوياء الضعفاء ... ترك الأثرياء الفقراء المعدمين .

الأثرياء والأقوياء يبتعدون ويتغلغلون نحو الجنوب ، بل لقد آثر أغلبهم الطيران إن أمكن إلى أبعد نقطة ممكنة .
البيانات تتوالى ... الموجة تقترب ... تقترب ... يستسلم العجزة والمساكين لأقدارهم ، حيث لا جديد في ذلك ... ومثلما صمدوا قديماً أمام العديد من الموجات التي كانت تطأ هاماتهم فقط دون غيرهم ؛ فلسوف يصمدون لهذه الموجة .
وإن شاء لهم القدر أن يهلكوا فلا مفر من أقدارهم وليواجهوها بشجاعة .
التفوا حول بعضهم البعض ... تآلفت قلوبهم ... تناولوا القفشات والنكات المكشوفة .. تعالت قهقهاتهم ... تجولوا في بيوت الأثرياء الذين تركوا كل شيء خلفهم إلا ما خف وزنه وغلا ثمنه ..
أصداء البيانات التي تأتيهم عبر الشاشات التي تركها أصحابها لا زالت تنذر باقتراب الخطر ..
تلاهى المقهورون في مقتنيات الأثرياء والأقوياء ، أخذهم الافتتان بها ... عبثوا بكل شيء طالته أياديهم ..
لم يشعروا بسعادة وأمان مثلما يشعرون الآن ...

لحظة اغتيالي

كثرت الأحاديث الهامسة بين أبي وأمي على غير عادتهما ...
ينوء ذراعا أبي بما يحملانه من أطعمة وفاكهة وحلوى ...
أمي تعيد تنظيم أثاث البيت ، خاصة الأسرة التي حرصت على تغليف مراتبها بمشمع شفاف قبل أن تضع الملاءات ..
أبي هذه المرة يحمل شاشاً وقطناً وبعض الأدوية ..
أمي تجذب منضدة كبيرة من أحد الأركان إلى وسط الردهة ، ثم تكسوها هي الأخرى بمفرش من المشمع ..
أحضر أبي جدتي المتلفعة بالأردية السوداء دوماً ... ربتت على كتفي متفوهة ببعض الكلمات الغامضة ..
لمحت أمي وهي تغمز لها بعينها ...
رن جرس الباب .. هرعت إليه .. فإذا بعمتي وابنتها التي يقترب عمرها من عمري .. رحبت بها أمي .... ثم أخذا يتهامسان ...
جذبت ابنة عمتي إلى أحد الأركان التي احتفظ فيها بعرائسي ولعبي لأريها إياها في زهو ...
عاد أبي ومعه امرأة تقترب من عمر جدتي ، لكنها تبدو أكثر غلظة ...
ارتمت على أول مقعد صادفها .. أخذت تلتقط أنفاسها اللاهثة ..
تعلقت أنظارنا بها ...
الثواني تمر ثقيلة .. الجميع يترقب وينتظر ..

- حضرتم الطلبات ؟.
- كل شيء جاهز.

- نبدأ بمن ؟
قالت أمي : سمية ..
قالت عمتي : نورا ..

حسمت المرأة الموقف ، وقالت : نبدأ بالأكبر .
رغم أن فرق العمر بيننا كان لايتعدى أسابيع قليلة ؛ إلا أنها أنقذتها من أن تكون هي البداية ..!
أمروني أن أقترب من المنضدة ..!
ارتجفت أوصالي بشدة ..! أستطيع أن أروي بدقة ما يشعر به المحكوم عليه بالإعدام لحظة تنفيذ الحكم .. .
تجمدت في موضعي .. سقطت دميتي من يدي ..
لم أعد أرى شيئاً ..! لاشيء سوى الخوف ... تحول كل من حولي إلى وحوش ..! إلى أمنا الغولة ... !
تطوعت الأيادي اليابسة لجذبي ، ثم اضطرت إلى حملي ..!
ماذا فعلت يا أميْ ..؟ ! أنا لم أفعل شيئاً ..!
أقسم بالله العظيم .. لم أفعل شيئاً .. لماذا قررتم ذبحي .؟!
الأيادي تزداد قبضتها على جسدي اللدن ... تزداد مقاومتي ..
• عيناي مثبتتان على دميتي التي داستها الأقدام .. فنزعت ملابسها المزركشة عن جسدها ، الذي طالما حرصت على ستره وتغطيته ..!
المرأة تنهر أمي التي خفت قبضتها قليلاً عن إحدى ساقيّ ، بينما عمتي منقضة على الساق الأخرى .. أمّا جدتي فقد كلفت بتثبيت رأسي .
كرهت ضفائري المسدلة على كتفيّ .. كرهت الشريط الساتان الأحمر الذي يتخللها..
لم أعد احتضن دميتي بين ذراعيّ ..

لم أعد أحمل بين ضلوعي سوى المهانة .

الأبخرة

زخات المطر المتتابعة تضرب بعنف في الجدران والنوافذ ، محدثة أصواتاً عديدة تزيد من إحساسه العميق بالوحدة والوحشة ، لا يبددهما ضجيج المذياع ولا المئات من قنوات التلفاز .
يريد أن يتجاذب أطراف الحديث مع أحد ... أن يختلف في وجهة نظر .. يرفض .. يوافق .. يقترح .. يريد أن يشعر أنه على قيد الحياة .
يجتاحه إحساس عميق بالندم ، حين اعتقد أن حياته رتيبة بسبب تلك المشاكل التي عادة ما كانت تستقبله بها زوجته حال عودته من العمل مجهداً ، عن شجار الأولاد .. احتياجاتهم .. دروسهم .. كل ذلك لم يكن إلا بئر سعادة ، تعامى عنه ، ولم ينهل منه كما كان يجب .
إنه يتشوق ولو لساعة واحدة من تلك الأيام الدافئة .. يستشيره أحد .. يبث إليه شكواه .. يعود ملكاً ؛ حاكماً ومتحكماً .
انتقل الولدان والابنة الوحيدة ، بكامل إرادتهم إلى أحضان غرباء .. جنوا بسهولة ما ظل سنوات طويلة يغرسه ويرعاه .. فإذا به في نهاية المطاف ، وحيداً ، شقياً ، لا يجني إلا الصمت القاتل ؛ الذي زاد من وطأته رحيل زوجته بغتة دون رقاد .. تاركة خلفها فراغاً موحشاً ..
أين تلك الليالي التي كانت تملؤها بهجة بحديثها المكرور عن زوج ابنتها الأثيرة ، وزوجة الولد الكبير المتعجرفة ، والأخرى المدللة

.. عن الأحفاد ونوادرهم .. ينصرف عن حديثها إلى الإنصات لنشرة الأخبار أو متابعة مسلسل ..
فتنصرف هي الأخرى إلى المطبخ .. تعبث بالأواني والملاعق .. وسرعان ما تتصاعد الأبخرة عبر نافذة صغيرة تربط بين المطبخ والردهة .. فيشع الدفء والألفة .. وسرعان ما تأتي إليه بخطواتها الوئيدة حاملة طبق أرز باللبن ، لا تزال تتصاعد منه الأبخرة .. وقد نثرت على واجهته حبات الزبيب والبندق المجروش .. . . كم يجتاحه الاشتياق الآن إلى اصطكاك الأواني .. إلى صوتها الرخيم .. إلى طبق أرز باللبن ..
دفع الأغطية عنه .. أدار جسده .. هبط بتؤدة من فراشه .. اتجه نحو المطبخ ، مستنداً بيده على الحائط .. جال ببصره أنحاء المطبخ .. مد يده المثقلة بالأردية الشتوية السميكة .. جذب الأرز من أحد الأرفف .. اخرج اللبن من الثلاجة .. أشعل النار .. وقف حائراً .. من أين يبدأ ؟! وكيف ينتهي ؟!
هرع نحو التليفون .. أدار رقم ابنته التي كانت تغط في نومها ؛ حيث تجاوزت الساعة الثالثة صباحاً .
جرس التليفون في ذلك الوقت لا يعني إلا أخباراً سيئة .. ! اجتاحها هي وزوجها قلق واضطراب شديدين .. استجمع زوجها شجاعته بعد تردد لم يدم طويلاً .. هاله صوت حماه الذي أكد بثبات وبعد إلحاح أنه بخير ..
فقط يريد أن يعرف كيف يصنع أرزاً باللبن .
ابنته تكاد لا تصدق أذنيها ... أخذت تعيد عليه ما سبق وقاله زوجها للاطمئنان عليه ؛ فأكد لها بنفاد صبر أنه بخير .. ألحت عليه أن ينتظر سويعات قليلة ، وسوف تأتي إليه لتعده له .. لكنه أبى في حزم وعناد .
عاد إلى المطبخ .. وضع الماء في وعاء .. أضاف إليه الأرز بعد غسله .. رفع الوعاء على النار .. غمرته سعادة طاغية لتصاعد

الأبخرة .. أنسته الخطوة التالية ..
دون تردد .. راح يدير قرص التليفون .

الغريق

٥- أ

يشق ساعداه سطح الماء .. يتضرعان .. يستغيثان .. يلتمسان ولو قشة .

١

- إلى متى سيظل يعاملنا كحشرات مصاصة للدماء ؟ ! أليس مــن حقــنا أن نحظى بما تحظى به زوجته الماجنة وابنتها المقززة ؟ !
- لا تتحدث هكذا عن أختك .
- أنا ليس لي أخوات غير " ضحى " .
- بل لك .. إنه الواقع .
- الواقــع الــذي داهمنا كمدرعة عملاقة ، حولتنا إلى مجرد أسماء في حياته ، يرد ذكرها على لسانه بين الحين والحين .. مــاذا لو تقدم عريس لضحى .!؟ كيف نفسر له ابتعاده عنا ونبذه لنا .

- بالفعل " ضحى " تقدم لها عريس ، ويريد أن نحدد له موعد للزيارة في أقرب وقت ممكن لأنه مرتبط بميعاد سفر .
- وبالطــبع " بابا " كعادته التي لم يقطعها منذ سنوات يقضي الصيف بالإسكندرية هو وال ....
- قلــت لــك أكثر من مرة ، لا تتكلم هكذا عن أحد حتى ولو كانــت زوجــة أبيك . لا أريد أن يتمكن الحقد من قلبك ؛ حــاول أن تلتمس الأعذار للناس ، ومن الأولى أن تلتمسها لأبيك .
- أهنــئك علــى هذا السلام النفسي يا أمي ، أتمنى أن يكون حقيقة لا خداع فيها .!
- دعــنا مــن ذلــك الآن ... هذه الورقة فيها العنوان ورقم التلــيفون ؛ وضحى سوف تحجز التذاكر اليوم ولا تنسيا أن تحمــلا هديــة لأختكما . ترجوانه بأدب أن يحضر لمقابلة العريس .

٢

- لماذا تجبرنا الحياة على الابتسام في الوقت الذي لا نريد ؟ ! وأن نــتظاهر بالسعادة على عكس ما نبطن ؟ ! لماذا أنا مضطر ألا أتفوه إلا بما يليق بفتى مهذب ؟ أليس هذا نفاق ؟ ! ألــم يسأل نفسه من أين لي بمشاعر الحب والتقدير ؟ ! ألا يؤرقه أنني أخدعه .. أتملقه ؟ !
- انصــحك أن تكف عن التفكير في هذا الموضوع يا عمرو .. إذا كان قد أفسد ما أفسد في الماضي ؛ فلا تفسد الحاضر ...انظــر إلــى رصــيف القطار .. انظر وجوه الناس .. عــيونهم تتطلع للأمام .. لا ينظر إلى الخلف إلا المذعور

المضطرب ؛ وهذا ما يجعله في مؤخرة الصفوف دائماً ..
لا يتساوى من ينظر أمامه مع من ينظر خلفه .

- أنـــت مـــثل أمك تماماً ؛ تمكنتما من إسقاط أدران الماضي عـــنكما ، بيـــنما أنا قد حيكت شبكته العنكبوتية اللزجة في جسدي .

٣

- ....
- آلـــو .. اطمئنـــي يـــا أمي القطار على وشك الدخول إلى الإسكندرية .
- ....
- نعم .. نعم .. العنوان معنا .
- ....
- لا.. موبايل بابا مغلق !
- تاكسي ... خالد بن الوليد .
- شكراً يا اسطي .
- هاهي العمارة يا ضحى .
- ماذا سنفعل الآن ؟!
- لـــيس أمامنا سوى الذهاب إلى أقرب شاطئ ، ونهاتفهم من وقت لآخر .

٤

- لطالما حلمت أن أزور الإسكندرية .. أتطهر في بحرها .. أصهر تحت شمسها .. أتباهى بجلدي المحروق المتساقط

هــاهو الحلــم يــتراقص أمامي عارياً ... إنه يجذبني بقوة .. يصرخ بوجهي ... هاأنذا أمامك ... هيا أرتمي في حضني .. هيا التمني !

- لكنك لا تجيد السباحة يا عمرو ... لا تغامر .
- وما قيمة الحياة يا ضحى إن لم نغامر ! ؟

٥- ب

ينتصب الجميع وقوفاً ... تضيق حدقاتهم وتتسع ... تمتقع وجوههم .. تلهج ألسنتهم بالدعاء .. تشير أياديهم إلى نقطة صغيرة تلج وسط الأمواج المتلاطمة الغاضبة ، تحملها موجة وتطويها أخرى .
" ضــحى " تنتحــب .. تــتدافع بجسدها الرقيق وسط الجموع ... يلمحهــا رجل ضخم الجثة .. كث الشارب .. ألقى بنفسه من فوره وسط الماء ، يضربه بساعديه القويين ... يتحدى الثواني ... تتطلع إليه العيون في رجاء ، وهو يراوغ الأمواج ... يمد إليه ساعده ... يلــتقطه بنهم .. بجزع ... تلطمهما الأمواج ... يتفرقان ... يزداد إصرارهما ... يعودان يتشبثان ببعضهما البعض ...
عــندما تبيــن له وجه منقذه .. دبت فيه قوة خارقة ، أعادت الحياة لجسده المنهك .

الزمن الغابر

ظل المقعد أمامي خالياً ، لم يبادر أحد باقتنائه رغم الزحام الشديد الذي يكتنف عربة الترام .
فجأة .. انشق عنها الزحام .. زائغة العينين .. مشعثة .. كثيرة الحركة ..
ألقت بجسدها المنهك على المقعد .. دست يدها المبرقشة داخل فتحة صدرها الضامر .. التقطت خيطاً سميكاً بلا لون .. جذبته بعنف .. حتى ظهر كيس من القماش تعلوه الأوساخ .. دفعت أناملها داخله .. التقطت بعض العملات المعدنية .. مختلفة الألوان والأشكال .. بين أحمر محجب الأطراف ، وأصفر مثقوب ..
عادت أناملها إلى الكيس كأنها مجسات أطلقتها داخل عالم مجهول ما لبثت أن عادت بعملات ورقية منهكة متآكلة الأطراف ..
نظرت إلي بحدة .. فررت بعيني عبر النافذة .. لكنها أرسلت صوتها الحاد في إثري متسائلة:

- النهارده كام في الشهر ؟!
- ثلاثة وعشرون .
- صاحب البيت بيقول أنه لم يأخذ مني إيجار منذ وفاة زوجي .. .. الكذاب .. أنا كنت أعطيه نصف ريال كل شهر ..

كان معها كيس بالٍ ممزق ، لم أنتبه إليه إلا عندما جذبته من بين ساقيها الجافتين .. أخذت تعبث بين محتوياته .. أخرجت لفة أوراق أسطوانية ، حلت وثاقها .. افترشت الأوراق التي انبعث منها رائحة الزمن الغابر .. وقد علاها لون كلون الصدأ ..

ناولتني إحداها .. ترددت في أخذها ، لكن يدها تصلبت في اتجاهي بإصرار شديد ..

– هذا آخر إيصال دفعته له .. انظري !

بهت .. ! تسمرت عيناي على تاريخ تحريره ... يوليو ١٩٥٢ .. لم تسعفني الكلمات ، وهي تتطلع إلي بعينيها الغائرتين في محجريهما ..!

الثواني بدت طويلة .. ثقيلة .. ليس علي فقط .. بل عليها أيضاً .. انفجرت محتدة :

– ألا تعرفين القراءة ؟ !

كانت العيون قد أخذت تنهش جسدي كالسهام .. وددت لو استطعت أن أقفز عبر النافذة ..

عربة الترام صارت كالزنزانة .. نهضت من مقعدي .. اخترقت الأجساد المتلاحمة بصعوبة شديدة ، متجهة إلى الباب ؛ رغم أنها ليست المحطة المنشودة ....

أسرعت خلفي .. وقد كومت أوراقها في قبضة يدها .. أخذت عضلات وجهها تنقبض وتنبسط ..

الترام تتهادى .. أخذ قلبي يقفز في صدري .. انفتح فمها كالبركان في وجهي .. قفزت من على درج الترام ..

ألقت خلفي بأوراقها ، وسبابها يلاحقني .

سند المايل

هو سند المايل .. لا يمكن أن تخطئه عيناي ، رغم مرور عدة سنوات ...

هو بشعره الأكرت ، وأنفه الأفطس ، وقامته القصيرة .. حتى صوته لا يزال له نفس الرنين المميز .. لطالما استغله في استعطاف المدرسين .. لا زلت أتذكره وهو يتلو علينا مراراً وتكراراً القصة الكامنة وراء إطلاق اسم " سند " عليه حيث أراد أبوه أن يعدل اسمه " المايل " الذي أطلقته عليه أمه لاعتقادها أن ذلك سيدرأ عنه الحسد .. وغالباً ما كنا نتخذ من تلك الأقصوصة مادة لضحكنا وسخريتنا ..

عانى " سند " اليتم في سن مبكرة جداً ؛ حيث لم نكن تجاوزنا المرحلة الابتدائية ... كان له من الأخوة اثنان يصغرانه بعام وعامين ؛ فاضطرت أمه أن تجلس على قارعة حارتنا تتاجر ببعض الأشياء البسيطة كالبيض والجبن القريش .

كان سند يعينها بالخروج إلى المقابر أيام الخميس والجمع ، مستعيناً بطلاوة صوته في قراءة بعض قصار السور من القرآن ؛ فيمنحه الزوار بعض القروش والحلوى والفاكهة ... بدت الحياة لهم مستقرة ؛ وقد أمنوا جانبها .. فإذا بها تكشر عن أنيابها ، حيث استيقظ أهل الحارة على صراخ وعويل ، تبين أن مصدره بيت " سند المايل " وقد تهدمت جدرانه على رؤوس سكانه ..

هرع الأهالي ليستخلصوهم من بين الأنقاض .. كان نواح أم سند يقطع نياط القلب وهي تستحث الناس على تركها تموت .

أصبحت عائلة سند نهباً للعراء ... لا يسترهم إلا بعض الملاءات والبطاطين البالية التي استطاع أن يستغني عنها الأهالي الذين يغلب عليهم طابع الفقر .

انقطع سند عن المدرسة ؛ ليتفرغ لعمله في المقابر طوال أيام الأسبوع ، كان يبدو أنه يدر عليه دخلاً معقولاً ؛ حيث لم تعد أمه تجلس على قارعة الطريق .

خلال فترة زمنية قصيرة .... بدأ يظهر عليهم بعض مظاهر النعمة من ملبس ومأكل ... ولم يلبثوا أن اختفوا عن الحارة تحت جنح الظلام .

تضاربت الأقاويل حول اختفائهم المباغت ؛ بين عودتهم إلى الصعيد مسقط رأس أبيهم ، وبين شرائهم شقة بأحد أحياء الإسكندرية الراقية ..

مع الأيام خفتت سيرتهم من حكايات الحارة وذاكرتها ..

إلى أن جلجل صوته في أذني ، صعقت صورته عينيّ ، وهو يطالب في حماس بإنصاف أصحاب العقارات القديمة مطالباً بتعديل قانون الإيجارات .

اقتحمت أذنيّ ثرثرة الجيران عبر النافذة .. يتناولون أخباره السابقة والحالية بزهو .

دفعني الفضول للانضمام إليهم ؛ فإذا بهم يجمعون على رجولته وشهامته اللذين مهدا له طريق النجاح والثراء . .

ظلت " نفسي " ساخطة على " نفسي " متهماً " نفسي " بالفشل والتقصير ، ولم أسامح " نفسي " إلا عندما قرأت بالصحف رفع الحصانة عن سند المايل ضمن من عُرفوا " بنواب الكيف ".

القبضة

بينما كل شيء كان يبدو كما ألفته منذ زمن أهرب من قياسه ..
قصر أم طال .. لاأهتم ...
باغتني سؤال أخذ يلح علي إلحاحاً شديداً : من أنت ؟ !
تظاهرت بأني لاأهتم له .. ورحت أتم ما بدأته منذ زمن .. قصر
أم طال .. لا أهتم ..
لكن السؤال أخذ يتردد بصوت أعلى ونبرات أغلظ : من أنت ؟
لازلت أتظاهر بأني لا أعيره أدنى اهتمام .. ورحت أنهي ما بدأته
منذ زمن .. قصر أم طال .. لا أهتم ..
السؤال لا يزال يلح .. وقد أصبح له أذرع عديدة كالأخطبوط
تقبض بشدة على عنقي مردداً بتصميم : من أنت ؟ !
بصعوبة بالغة أجبت : فأر
لكن القبضة لازالت تمسك بعنقي ، وبعض أصداء لأفكار قديمة
تلسعني ببعض العبارات : الفأر يجيد التسلق على الجدران والمشي
على الحبال ؛ وأنت لا .. الفأر يألف الجحور المظلمة ؛ وأنت لا ..
القبضة تشتد عن ذي قبل ..
والسؤال يزداد حدة : من أنت ؟ ! أجبت : صرصار ..
الأصداء ترد إليّ مسرعة : لا ؛ أنت تأبين العيش تحت الأقدام ولا
تقتاتين الفتات ..
أقترب حثيثاً من الموت .. السؤال بمثابةُ خناجر يتوالى رشقها
بجسدي مع كل نفس من أنفاسي : من أنت ؟
هاموشة .. ما أنا إلا هاموشة .. لا.. الهاموشة تألف الظلام ولا
تأنف الروائح الكريهة ..

كادت الحيرة أن تفتك بي ، خال لي أني أجذب آخر أنفاسي إلى صدري .. حينما اصطك بأذني صوت أحدهم يسب آخر: " يا ابن البردعة " ...... زالت القبضة وتوالت أنفاسي ...

السندان والمطرقة

(لو كانت فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) .
(لو كانت فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) .
يظل الحديث يدور برأسي عشرات المرات ، كلما لامست الوسادة ، فتبدو كصحراء شاسعة تبتلعني رمالها الحارقة في جوفها البارد ... اتقلــب يميــناً ويساراً ، كغريق يتلمس النجاة ؛ فأتشبث بحبال النوم الواهــية فــإذا مــا غشيني ، أجدني محشورة في طابور طويل في انــتظار تنفيذ الحكم ... حينما يحين دوري ، أصرخ : اقطعوا يدها هــي ... حاكموه هو .... حاكموا الجوع ... يتجهون إلي في ثبات ... ينفذون حكمهم ، دون أدنى التفاتة لدفاعي .

***

تزوجها أبي بعد رحيل أمي بشهور قليلة ، وقد أقسم لنا مراراً بأنه ما تزوجها إلا من أجلنا !
ممشــوقة القــوام ، بيضاء ، جذابة ، سليطة اللسان ، يرتشف أبي عسلها ، ويتركها تمارس لدغها في أجسادنا الهزيلة .

***

تلقــي بوجهي شنطة السوق الكالحة المهترئة الزوايا والأطراف ... تأمرني أن أتبع تعليماتها وإلا .....
أحمــل الشنطة ، أسير خلفها كمن يسير في جنازة عزيز غال ؛ بل كنــت أشــعر أنــي أســير في جنازتي أنا .... هي تشاغل البائع بالحديــث اللين ، والابتسامة الواعدة ، وأنا أتحين اللحظة المناسبة

لألــتقط مــن بضــاعته ، وأدسها في الشنطة .... وهكذا ... هي تشاغل ، وأنا ألتقط ... تواعد ، والتقط ....
حينما ضبطني أحدهم ذات مرة ... صاح بي : ياحرامية يا بنت ال .... وقد هم بصفعي ، فإذا بيدها البضة تسبقه إلى وجهي ، ولسانها الحاد يلسعني كالسوط .

***

اذهب إلى المدرسة ، وأنا أشعر بالضآلة حتى يخيل إلي أن نعال الناس مركبات عملاقة سوف تدهس هامتي ، فأراوغ الأقدام النهمة لسحقي .... متلمسة النجاة خلف عود ثقاب ، أو عقب سيجارة ... حينما تكتب لي النجاة ، يبتلعني فراغ المدرسة .

***

فـــي الفسحة ... ننتظر بفارغ الصبر أن تعلن هويدا صديق ، ابنة الجـــزار المشـــهور بذبـــح الحمير عن فقدان شهيتها ، فتمتد إليها عشرات الأيادي ، لتلتقط كسرة من سندوتشاتها العامرة بأشياء غير مألوفة لنا .. وكم كان يوماً حزيناً حينما انقطعت هويدا صديق عن المدرسة ؛ حيث قرر المعلم صديق تزويجها .

***

أسلمت نفسي تماماً لزوجة أبي .. أنصت لتعليماتها جيداً ... أتقنت اللعبة ... لم أعد أضبط متلبسة ... لم أعد أسب أو أصفع ... فقط ذلك الطابور الذي أحشر فيه ، في انتظار تنفيذ الحكم ؛ وقد اصطف خلفي أشقائي .

العزف على أوتار الماضي

كعاداتهم التي لم تتغير .. رغم تبدلهم الواحد تلو الآخر .. عشرات منهم .. !

كل واحد منهم يكرر مافعله الذي سبقه ، وهو يشعر أنه قد ناله شرف عظيم ..

أياديهم دائماً ترتعش ، وهي تضغط على زرّ الجرس .. فتترامى إليه رنات قصيرة ، متقطعة ..

ورغم أنه قد مل الفزع الذي يجتاح وجوههم ... ملابسهم الكاكية .. أحذيتهم الغليظة المعفرة ..

إلا أنه ينتظرهم ، ويجتاحه القلق إن تأخر أحدهم عن ميعاده .. إنه يعلم أنهم يتباهون بين بعضهم البعض بشرف خدمة البك الكبير ، وأنهم وطئوا وخبروا بيت الباشا القديم ؛ لذلك كان يحرص على أن يغدق عليهم المزيد من الشرف ..

يتحرك بخطوات وئيدة ، متكئاً على عصاه .. بعد أن ترامت إليه رنات الجرس ، وهو يتمتم :

" الجرس ، لعاب الكلب ... استجابة شرطية "

- كيف حال سعادتك أفندم ؟ .. تأمرني بشيء ؟
- **أدخل يا "دفعة " .. أجلس ...**
- العفو سيادتك ..
- **اجلس يا بني ..**

العرق يتفصد من جبهته .. يتململ المقعد أسفله .. يهم بالنهوض .. لكن صوت العجوز يأمره بالجلوس ..

- **هذا المقعد كان المفضل لدى الباشا .. لم يكن يجلس إلا عليه أيام صباه ، وسنوات شبابه الأولى ..**

هم بالنهوض مرة أخرى .. فأشار إليه بيده النحيلة ، التي تشي بسنوات عمره المديدة ، بأن يلزم مكانه ؛ ثم أردف :

- **الباشا لم يأت هنا منذ سنوات .. اقتفي أخباره من الجرائد والتليفزيون مثل أي مواطن ! حتى حفيديّ لا أعرف كيف صار شكلهما الآن ؟! لقد أرسل من يأخذني عقب ولادتهما في عامين متتاليين .. هل رأيتهما يا ابني ؟**
- لا .. سعادتك .
- **من عدة شهور ، روى لي عسكري أنه رآهما وقد قال : أنهما يشبهاني كثيراً .. لماذا تنظر في ساعتك ؟ ! هل حان وقت عودتك ؟**
- أمامي ساعة زمن واحدة ..
- **سأعد كوبين من الشاي .. اكيد أنت جائع ! .. الباشا بيرسل لي عن طريق أحد المطاعم عدة وجبات كل أسبوع .. لقد كان في صباه يفضل الطعام الذي أعده له بنفسي .. لم يكن لنا غير بعضنا بعد أن رحلت أمه ، وهو لا يزال صبياً**

نظر الشاب في ساعته ، ثم نهض ؛ وقد بدا على ملامحه الفزع ... لكن العجوز لم يتوقف عن الحديث ...

- **الوزارة كالمرأة الفاتنة .. تأسرك بالكامل ! وتأبى إلا أن تدور في فلكها هي فقط .**

أنا لم أعد لك الشاي ..

أنت من القاهرة ؟

- لا ... أنا من قنا .
- **عندما تحين إجازتك .. تعال .. أقضي معي يومين ..**
- شكراً سعادتك ..!
- **سأنتظرك .. ستنام في سرير الباشا ، وسترتدي بيجامته أيضاً .. أنت الذي سوف تحضر غداً ؟**
- لا أعلم .. ربما أنا وربما زميلي !
- **مع السلامة يا ابني**

***

الجرس يصدر رنات متقطعة قصيرة ..
يتحرك بلا حماس .. يهمهم .. يفتح الباب ..

- **ادخل يابني .. اجلس هنا ..**

المقعد يتململ ..

- **هذا كرسي الباشا .... كان ...**
- **هل أنت من القاهرة .؟ ...**
- سأنتظرك ....

المصعد

ينوء بأحماله .. يلتقط أنفاسه بمشقة ... يتوقف قليلاً ملقياً بجسده على الحائط ، حتى ينتهي ذلك الفاصل من السعال الذي ينتابه بين الحين والآخر .

كل من يصادفه على الدرج ينفث في وجهه دفقات الغضب المقرون بالتأفف ، ثم يملي طلباته .. الجميع يريدها الآن .. لا يملك حق الجدال أو الرفض .. ليس من حقه أن ينطق بغير كلمة " حاضر يابك " .. "حاضر ياهانم " ...

عاد يواصل صعوده إلى الدور التاسع بساقين ترتعدان على إثر تنامي صوت البك إلى مسامعه حاداً غليظاً . . يسب ويلعن بألفاظ نابية ، وحينما اقترب من الباب ، خفق قلبه ورق للهانم زوجته ... حيث وصله صوتها ضعيفاً مهزوماً .. إنه يحسد البك عليها .. فهي مثال المرأة الجميلة .. الأنيقة التي طالما داعبت أحلام الصبا ... من كانت على شاكلتها لجديرة بقصر وأمير .. غرق في خيالاته حتى راح ينسج لها عرشاً وتاجاً ؛ أطاح بهما صوت غاضب يسأل في حدة عن سبب تأخر عامل الصيانة ..

– علمي علمك يابك .. زمانه على وصول إن شاء الله ..

يترامى إليه صوت أنثوي يعرفه جيداً .. إنها ساكنة الدور الرابع ، زوجة صاحب العقار .. متأففة دائماً ... تتصبب عرقاً صيفاً وشتاءً .. لا تكف عن تأنيبه ، وتحميل أطفاله مسئولية تعطيل المصعد ..

- افندم !
- تعال حالاً .
- حاضر ياهانم .

يضغط زر الجرس ..
يفتح البك مهوش الشعر .. يتفصد العرق من وجهه ورقبته ..
بادره بلهجة حادة :

- عايز أيه ؟!
- احضرت طلبات الهانم .. تبقى من المائة جنيه خمسة عشراً
- خمسة عشر جنيهاً من مائة ؟!! كيف يا حرامية يا ولاد ...
- يابك الله يسامحك ! أنا لست حرامي !
- ألا تسمسر بالاتفاق مع السوبر ماركت ؟ أليس لك عمولة منه ؟
- الله يسامحك يابك !
- سيسامحني غصباً عنك يابن ال .... ومائلك النقود البالية ؟! ردها إليه .. استبدلها بأخرى جديدة .

تأبى دمعتان من عينيه أن تطفرا .. الجفاف يعتصر حلقه ..
الأصوات تترامى إليه ، متأففة غاضبة .. عامل المصعد هو الآخر يحمله مسئولية سوء استخدام المصعد .. صوت زوجته المسرسع يترامى إليه حاداً مستغيثاً .. يهرع إليها ملتاعاً .. الولد حرارته مرتفعة ويتقيأ ..
حينما عاد ، هاله الزحام الذي يكتنف العقار ، بالكاد شق طريقه بين الأجساد المتلاحمة .. رجال البوليس .. السكان .. متطفلون وفضوليون .. يحاول أن ينصت .. أن يلتقط خيطاً يهتدي به لشيء

.. ضجيج ودهشة تعلو الوجوه التي اتجهت بعيون محملقة ذاهلة إلى لوحة المصعد المضيئة ..

G ..٢..٣..٤..٥..٦..٧..٨..٩

دفع الباب بقوة .. نجوم ونسور تحوط البك مكبلاً مطأطأ الرأس .. اندفع في إصرار ، مخترقاً السياج البشري المحكم .. نفذ من خلاله كالسهم ، ليصبح وجهاً لوجه أمام البك ..

برأس شامخ ... ناوله الخمسة عشر جنيهاً .

المعركة الأخيرة

غشاوة النوم الطويل لم تفارق مقلتيّ ... لا يزال خدر محبب إلى نفسي يداعبني ... يدغدغني ... فاستسلم له ممتنة ، لكن لا تلبث مطارقها العملاقة تطاردني ... تحاصرني ... ارشقها بنظرات الكراهية ؛ فتبادلني بأشد منها ..

إنها الثمانين بعد المائة ... كلما اقتنيت واحدة ، توهمت أن الود والسلام قد حل بيننا ، فلا تلبث أن تسفر الحقيقة عن وهم وشرك عظيمين قد وقعت فيهما .

نشحذ حرابنا ... نكيد لبعضنا البعض ، يتحين كل منا اللحظة الحاسمة ...

أطرحها أرضاً ... انقض عليها بقدمين عافيتين ... أحيلها أشلاء ... فذرات ... فعدم ...

تجتاحني نشوة جامحة ... تطول قامتي ... تثقل نبراتي ...

يتضاءل الكون حولي ... لكن سرعان ما تدفعني الحياة للسفر خلف عقاربها ..

أعود .. ألهث خلف أشكالها وأحجامها ...

يلعب الوهم لعبته .. يغريني ببهاء وحسن هذه أو تلك .. اقتنيها في سعادة ... أحملها برفق متهللة مبتهلة..

أبث إليها نظرات الحب والوله ... تبثني ضغينة وأحقاد دفينة ...

يعود الشقاق بيننا وجلاً ، مسرعاً ..

اللحظة الحاسمة تتوثب ... نحشد قوانا .. نُشهر سيوفنا ... تُراق الساعات والدقائق والثواني حولنا ..

في يُسر... أحرز النصر تلو الآخر ...
ومع دوران عقاربها .. صرت أحرزه بعد جهد مضنٍ ، فأخرج خائرة القوى منهكة ..
عقاربها لا تكف عن التهديد والوعيد .....
حتى حانت المعركة الفاصلة ، وإذا بها تخرج لي لسان قانٍ طويل يلطم وجهي ، شامتاً ..
دقاتها .. ضحكات امرأة ماجنة .. تخترق أذنيّ .. تكاد تصمهما ...
غضبي لكرامتي شحذ قوتي ...
بكل عزم هممت بطرحها أرضاً ، فلم أعثر على ساعديّ ..
صوبت إليها نظرات الكراهية .. فلم تعرها اهتماماً ...
شرعت تتقدم نحوي في ثبات ، حتى صرنا وجهاً لوجه ..
بتلذذ وتمعن غرست حرابها الثلاث بصدري .

النوافذ المحكمة

– آن الأوان لكي تكسب لقمتك من عرق جبينك .

قالتها بصوت حاد وحازم ، بعد أن يئست من ترغيبه في التعليم .. دست في يده الداكنة ثلاثة جنيهات بالية ، تفوح منها رائحة الماضي المخضب بالفقر والعوز ، وعلى الرغم من ضآلة المبلغ ، إلا أنه كان بالنسبة له ثروة طائلة ، أطالت قامته ، وأكسبته صلابة وثقة .. تحول خلال ثوان من طور الطفولة إلى طور الصبا .. فرك رأسه كثيراً بحثاً وتنقيباً عن خيط يقوده إلى الطريق الأصوب ..

استغرق ساعات طويلة تقذفه فكرة وتتلقفه أخرى .. حتى هدته خبرته البكر إلى شراء مناديل ورقية ، ثمن الباكو ربع جنيه .. إذن الجنيه سيشتري أربعة ، والثلاثة يشترون ٤+٤+٤ يبقى ١٢ الأحلام تتراقص أمامه في أردية ذات ألوان زاهية ، تداعبه وتنعش آماله ..

سأبيع الواحد بثلاثين قرشاً ، سيكون مكسبي في الواحد خمسة قروش .. ٥+ ٥+٥ .. ظل يضيف خمسة إلى خمسة حتى استطاع بجهد جهيد أن يجمع اثني عشرة منها .. كان مبلغ ستون قرشاً بالنسبة له يمثل قيمة لا بأس بها ..

حمل مناديله ... اتجه بها إلى أحد الأسواق الفقيرة التي تعج بها قريته ، حيث تحول السواد الأعظم من أهل القرية إلى بائعين للاشيء وكل شيء ..

انتصف النهار .. ولم يبتع منه أحد.. لم يلتفت أحد إلى رجائه وإلحاحه ، فمناديله ترف يجهلونه ..!
عاد يفرك رأسه الصغير بحثاً عن مخرج ، فلا يزال اليأس بمنأى عنه ..
عندما لاح له عن بعد أحد القطارات مطلقاً سارينته المدوية ، شعر أن هذه السارينة ماهي إلا رسالة مقدسة توجهه إلى " محطة القطار " ..
دخلها مدفوعاً بالأمل والرجاء ..جابت عيناه أرصفة المحطة ..
أمامه قطاران يقفان في تحد واستنفار .. إلى أيهما يتجه ؟!
بدأت خبرته الوليدة للتو تؤثر في قراراته ..
هذا قطار يعتريه الإهمال والقذارة ، وهذا قطار معتنى به ، نظيف ، ألوانه زاهية .
هذا يستقله ناس مثل ناسه ، أما هذا فمستقلينه يبدون مثل الذين يطالعهم على شاشة تليفزيون المقهى ..
بخطى واثقة سريعة ، اتجه نحو الثاني .. بدون ترو اندفع داخل القطار .. فإذا بصوت جهوري ينطلق كالقذيفة ، يزلزله ، ويبعثر آماله .. لكنه لا يزال صلباً .. معين آماله خصب !
ظل يراقب أبواب القطار ليتحين اللحظة المناسبة للمروق إليه ، التي سرعان ما واتته .. اندس بسرعة خلف بعض الأمتعة المتراصة في إحدى الممرات الضيقة الفاصلة بين عربتين ..
عندما بدأ القطار يتحرك مصدراً أصوات أنين وزمجرة ، شعر أن روحه تنسحب من جسده ، رغم ذلك غمرته سعادة طاغية كتلك التي تجتاح مغامراً أنجز عملاً غير مسبوق !
عندما اطمأن إلى عدم وجود الرجل ذا الصوت الجهوري ، انطلق كالعصفور يروج بضاعته ..
صافحت عيناه الركاب بإجلال غير متبادل .. أعطاه أحدهم ٥٠ قرشاً دون أن يأخذ المناديل .. تكرر الموقف ذاته من إحداهن !

القطار لا يزال يصدر أناته وزمجرته .. يتخلل هذا وذاك صرخة مدوية ..
السواد الأعظم من الركاب منكبون على جرائدهم ، حيث أخبار الدوري ، والمباراة النهائية تلهب الأعصاب وتشحن الجو بالتوتر ! بدأ يضيق بهم وبجرائدهم ، فهم لا يشعرون بوجوده البتة ..
انتقل إلى عربة أخرى .. بدا حالها كسابقتها ، فانتقل إلى ما بعدها حيث غلب النعاس معظم ركابها وانطوت جرائدهم بين طيات المقاعد ..
لم يهدأ ولم يكف عن التنقل .. الأمل يقظ مشتعل .. وأخيراً ألقى به في رحاب صاحب الصوت الجهوري المنتفخ الأوداج والأرداف .. ارتجف . تعثرت خطواته .. الرجل يفرغ من فمه ألفاظاً قاسية ، تقرع أسماعه ... أخذ يتقهقر إلى الخلف .. يتطلع بنظرات خاطفة إلى وجوه الركاب الناعسة المطمئنة .
يطارده الرجل بإصرار ... جعل من الصبي قضيته التي لا تحتمل التأجيل .. فإن تراخى في أمره ، فلسوف يعج القطار بأمثاله غداً .. لم يكن أمام الصبي سوى التقهقر إلى الخلف ، وقد واصل تقهقره بخفة متناهية ، وبدا كأنه يطير ..
وصل الصبي إلى آخر فاصل في القطار .. وقف يتطلع عبر بابه .. إلى الفضاء الواسع .. اقتحمته فكرة أجرأ من تلك التي دفعته إلى صعود القطار !
خلال دقائق قليلة .. اصبح الرجل ذو البزة الزرقاء والصوت الجهوري على بعد خطوات قليلة منه ، ولا يزال ما في جعبته من سباب لم ينضب !
عينا الصبي تتأرجحان بين عالم أوسع وأرحب وبين موجة عاتية من اللحم تطارده .. يد مطارده تمتد لتقبض على جسد الصبي النحيل ، ينحني الصبي ليفلت من قبضة الرجل ..
يثب وثبة سريعة محتضناً مناديله ..

أصوات قرقعة وطأطأة ....
دماء ساخنة تتناثر على زجاج النوافذ المحكمة .

الطابور

الجو رطب خانق ... المكان مظلم كئيب ... تعاونا معاً في نسج شبكة محكمة على الوجوه العابسة المحاصرة بالغبار وشباك العناكب أينما ولت ... فتحولت الأجساد المصفوفة في طابورين طويلين ، أحدهما للنساء والآخر للرجال إلى كتلة مدمجة من الغضب ؛ فأخذت الألسنة تدور في الأفواه الجافة ، لاعنة ، ساخطة ..

يعلو صوت أحدهم في تذمر : " الفاتورة الماضية .. اضطررت أن أذعـــن بعد أن حفيت قدماي على مكاتب الموظفين ، ودفعت ثلاثين جنيهاً للمدعوق النت " .

- هو أنت عندك كومبيوتر ؟
- أنـــا يادوب بفك الخط ، ومراتي ما بتفكهوش خالص .. ! والحمد لله لم يرزقني الله بأولاد .

أخذت العيون المجهدة تحملق فيه ذاهلة ، متوجسة ..

تـــبارى آخـــرون في سرد نوادرهم مع الفاتورة . أما هي فلم يكف رأســـها الضـــئيل المتشـــح بطرحة سوداء كالحة عن الحركة يميناً ويســـاراً .. إلى الخلف وإلى الأمام ... تصيخ السمع لهذا ولذاك ، ثم ينطلق لسانها يلهج بعبارات المواساة :

" فـــداك ياخويا ... احنا اللي بنجيب الفلوس .. ربنا يعوض عليك .."

تدخـــل امـــرأة شابة .. تحمل على يدها رضيعاً .. تهمس في أذن المرأة العجوز .. فتتقهقر بظهرها إلى الخلف ، لتندس الشابة أمامها

... تعلـو أصوات بعضهن محتجات مستنكرات ؛ لكنها تستعطفهن بصوت حنون " معلش .. علشان خاطر النونو اللي على أيديها "

- انـا أيضـاً تركـت طفلي نائماً ، وإذا استيقظ ولم يجدني سينفجر في البكاء .
- ماعندكـيش حق .. ازاي كده !! تعالي خدي دوري وأنا آخـد دورك . أنا عايشة لوحدي بعد ما الولد الصغير ربنا افتكره بعد أبوه بسنة ، والولد الثاني النبي حارسه متجوز ، وبعيد عنك ما بيخلفش .

الطـابور يـتقدم بـبطء شديد .. رائحة العرق تزيد الناس إحساسًا بالاختـناق .. الموظف بدا شاحباً .. نادى على الساعي : "بسرعة احضر لي حاجة ساقعة ... ساقعة قوي . "

يحـثه أحدهم ، مشيحاً بيده أن ينتبه إلى عمله ، وكفى ثرثرة مع الساعي ... يثور الموظف معترضاً .. يحتد عليه الآخر .. تتعالى عبارات التهدئة : " صلوا على النبي . اخزوا الشيطان !."

يأتـي الـدور على المرأة العجوز .. . قطعت روايتها للمرأة التي تقف خلفها عن الحادث المفجع الذي أودى بحياة ابنها .

تمد للموظف ورقة صغيرة مطوية على عدة أرقام .

- أربعين جنيهاً يا حاجة .
- اربعيـن جنيهاً !! لماذا ؟ ! أنا عايشة لوحدي بعد ما ربنا افتكر ....
- ياست أنت قلت لي هذا بالأمس ... ستدفعين أم لا ؟
- لا .. بكره انشالله .

السوط

ضاقت الدنيا به وعليه ، حتى أصبحت كزنزانة تقترب جدرانها من بعضها البعض ؛ حتى كادت تسحق عظامه ..
يحاصـــره بكاء أطفاله الخمسة .. صياح زوجته .. سخرية صاحب المـــنزل ذي اليد الغليظة ، والتي ينهال بها صفعاً على باب حجرته القابعـــة في قاع الحارة .. القابعة في قاع الدنيا ، مهدداً ومتوعداً .. إن لم يصله الإيجار خلال يومين .. فسوف ....
زوجـــته لا تكـــف عن معايرته أنه عاطل مع تذكيره مع كل كسرة خـــبز وكـــوب شـــاي أسود من قرن الخروب بالدين العالق برقبته لأخيها الذي لولاه لكانوا ...
سمع أصغر أطفاله يسأل أمه عن طعم اللحم .. أجابته ساخرة " وأنا ايه عرفني ! أسأل أبوك .. يمكن يكون أخدها في المدرسة "
انطلقـــت من صدره زفرة غضب قوية ، اندفع في إثرها إلى خارج الحجرة ... الطرقات والشوارع بدت له كالديدان تتلوى أسفل قدميه ..
الظلام يزداد كثافة ... الناس تزحف إلى شقوقها ... كأنهم زواحف ... هو فقط الكائن الوحيد الذي له ساقين .. ذراعين .. يحمل على كتفـــيه كرة متعددة الفتحات أعظمها وأبغضها فتحة " الفم "... أخذ يتحسســـه بأناملـــه الداكـــنة .. يفتحه ويغلقه .. يدس يده بداخله .. يسحبها .. يعد أصابعه .. يطلق ضحكة ماجنة .. ترد إليه أصداءها ، فيعيد إطلاقها وسط بكاء السماء الغزير ..

ابتلــت ثيابه الرثة .. التصقت بجسده .. شعر بالبرد يعض أحشاءه .. جـــال ببصره في أنحاء المكان ... وقع على إحدى المآذن التي بدت له كسيف مشهر يحارب الظلام وحيداً ..
أسرع الخطي تجاهها .. دون تردد .. اقتحم باب المسجد ..
توجه من فوره صوب المنبر ... صعد الدرج ببطء شديد ... جلس علـــى أعلى درجاته .. أخذ يتفحص السقف .. الجدران .. الثريات المدلاة البسط الزاهية الألوان ..
لاحظ جهازاً كبيراً " للتسجيل " وبجواره عدة أشرطة .. هبط الدرج .. اقــترب منه .. جلس بجواره .. عبث بمفاتيحه ..انطلق صوت رخـيم منشداً " السميع .. البصير .. العليم .. .. " طفرت الدموع من عينيه .. أغلق الجهاز .. جلس ساهماً..
عــندما لاحظ أن الفجر أوشك أن ينهي معركته الأخيرة مع الظلام ... حمل الجهاز ... ومضى .

الانتظار

بصوت تحدوه اللهفة ، أسأل أمي مع الإطلالة الأولى لكل صباح :
جدتي ماتت ؟؟
تجيبني بصوت مرتعش النبرات متآكل الحروف : جدتك ستشيعنا جميعاً !

***

ذات مرة .. سمعتني جدتي .. نادت علي .. اقتربت من فراشها ، الذي تفوح منه رائحة غامضة ، لا أعرف مبعثها .. ربما الزيت الذي تدلك به فروة رأسها الملتهبة دوماً ، أو المرهم الذي تدهن به ساقيها .
سألتني بوجه يقطر حزناً :

- لماذا تتعجلين موتي ؟ ! ..

دست يدها النحيلة البيضاء تحت وسادتها ، وعيناها تحدجان في اللاشيء ، حتى اصطدمت أناملها بقطعة معدنية لوحت لي بها ...

- هذه لك ؛ إذا اجبتيني بصراحة ...

تهللت أساريري ، وببراءة وقسوة قلت : لأن أمي سوف تصنع لي عرائس كثيرة بثيابك ..
ذرفت دموعاً غزيرة .. تفرقت في أنحاء وجهها ، مخترقة طرقاً

وأخاديداً متعرجة ومتشعبة .. لكن ذلك لم يقف سداً أمام فرحتي بالقطعة المعدنية التي أصبحت ترقد في قبضة يدي ...
هرعت بها إلى عم " رمضان " الملقب بمقاول البنات .
جابت عيناي الأغلفة البراقة المرصوصة بعناية خلف الزجاج " المضبش " .. وعم " رمضان " يرتشف بصوت يشبه شخير أبي من كوب شاي يتصاعد منه الدخان كأنه ثعبان يتراقص على تلك الأصوات ..
أخذت عيناه تبرطعان في جسدي الهزيل .. ناولته القطعة المعدنية ... ألقاها في وعاء بلاستيكي كالح دون عناية ..التقط من " برطمان " زجاجي حبتي " كرملة " بدتا ضئيلتين في كفه الضخم الممتلئ .. ثم بادرني بصوته الناعم الأنثوي الذي يتعارض مع بنيانه الضخم :

- أنت بنت مين يا بت ؟!
- أنا بنت أبو " إسماعيل " .
- بلغيه أن عم " رمضان " عايزك .

عندما عدت إلى المنزل .. وجدت أبي يجلس القرفصاء دافساً وجهه بين كفيه الهزيلتين ، وقد التف حوله عدد من الجيران محوقلين ومترحمين ..
هرعت إلى غرفة أمي لاستفسر منها .. كانت تحاول أن تفك عقدة صرة ملابسها السوداء والتي اعتادت إخراجها كلما ترامى إلينا خبر موت أحد الأقارب أو الجيران . . بادرتني دون أن أسألها:

- جدتك ماتت ... أريدك أن تجمعي أشقاءك الصغار .. ابسطي لهم البطاطين وادفعيهم للنوم .
- ومتى ستصنعين لي العرائس ؟ !

ضاع سؤالي وسط نحيب العمات اللاتي أخذن يتوافدن واحدة تلو الأخرى ، وبمجرد أن تطأ أقدامهن عتبة المنزل ، يأخذن في

النحيب والصياح ، كأنهن يمارسن طقوساً لطرد شبح الموت عنهن ، تجاملهن أمي بالصياح والنحيب ..
ازدحم المنزل خلال وقت قصير ، اثر انتشار خبر وفاة جدتي .. توافدت صواني الأطعمة .. الرجال يحثون أبي على الأكل ..
جمعت أشقائي الصغار كما أمرتني أمي بعد أن أعددت لهم فراش النوم .. فأنا الآن أكبرهم بعد أن أخذ عم " رمضان " جميلة وعزيزة إلى " مصر " ، حيث يذهب أبي لزيارتهما كل شهر .. يعود من عندهن مبهوراً مما يرويانه عن العائلات التي يعملن لديها .. أصناف الطعام .. الملبس الفاخر . . الحمامات البراقة .. البسط النفيسة .. كل مرة يعود أبي لنا بحكايات تثير في نفسي الحنين إلى بيوت مصر ..
بعد أن دفعتهم إلى فراشهم .. طرحت عليهم البطانية الناعمة الوثيرة التي أحضرتها لنا عزيزة من مصر في إحدى إجازاتها ... ثم تبوأت الأريكة ذات التجويف السحري والتي تشعرني بأنني أجلس على قمة عالم أسرار أمي ... فهنا تكمن الأشياء البراقة التي تحملها إليها جميلة وعزيزة .. وهنا ترقد النقود التي يأخذها أبي من عم " رمضان " كل شهر .... حجة البيت .. كونتراتو النور ... قسيمة زواج أمي .. شهادات ميلادنا الست .. شهادة وفاة جدي .
مع بزوغ شمس اليوم التالي ... تكومت أنا وأشقائي في الغرفة ؛ لم نبرحها إلى أن هبت العمات مرة واحدة في نوبة صياح ونحيب عارمة إثر خروج جثمان جدتي من غرفتها محمولاً على لوح خشبي قديم . ..
هرعـــت إلى غرفتها .. فإذا بها موحشة كقاع بئر عميق ... وثمة امرأة غليظة الملامح ، داكنة البشرة تلتقط في نشاط ثياب جدتي .. لفتها بإحكام .. تأبطتها ومضت .

الاثنان

كانا اثنان .. فأحبا ذلك العدد .. وكان لهما رقم الحظ.
كان يحرص على أن يطير على مسافة أعلى منها ليمتع نظره برشاقتها وحيويتها ، وليكون لها سحابة ندية تقلل من قسوة الشمس عليها ..
أما هي فكانت سريرة النفس بظله عليها ونظراته لها ..
على مسافة غير بعيدة تراءت لهما بحيرتهما المنشودة بزرقتها التي أهدتها لها السماء تمتزج مع ذلك اللون العشبي ، الذي استمدته من الثوب الأخضر الذي اكتسى به الجبل الذي يحتضنها .. زاد أيضاً من جمالها ذلك الشعاع الدافئ الذي تبعثه الشمس في خجل .. مزيج من الألوان تعجز فرشاة أعتى الرسامين أن تأتي بمثله ..
هبط الاثنان إلى البحيرة في سعادة طاغية ..
على صفحة البحيرة الصافية كان كل منهما يرى صورة الآخر بجواره فيزدادا سعادة ، ويضربان صفحة الماء بمنقاريهما في هوس ومرح فتتطاير قطرات الماء حولهما ثم لاتلبث أن تعود إلى حضن البحيرة ..
ظلا هكذا إلى أن شعرا برعشة خفيفة .. فبعدا عن البحيرة ليجلسا في أشعة الشمس الحانية التي أخذت تحيطهما برداء من الحرير القرمزي الدافئ ..
أمتنا لما ينعمان به في ذلك المكان الساحر الذي أتفق فيه كل اثنين أن يضيفا إليه ما أمكن من جمال ..

كل شئ اتحد ليجعل من المكان أسطورة تعزف أعذب الألحان في صمت رهيب .. لا يسمع .. ولكن يتسرب برفق إلى النفوس الصافية التي تستطيع أن تسمع ما تهمس به الطبيعة ..

حين حان وقت الغروب .... نهضا من مرقدهما .. أخذ كل منهما يحرك جناحيه ويعبث بمنقاره في ردائه الأبيض ثم أخذا يرتفعان ، كالمعتاد كان هو حريصاً على أن يطير أعلى منها .. طارا إلي أن وصلا إلى عشهما الصغير ، فأسدل الليل عليهما ستائره السوداء المرصعة بأشعة القمر الفضية ..

مع أول شعاع قرمزي داعب عيونهما ؛ استجابا له في رضا وسكينة ، بدأت عيونهما تجوب المكان حولهما ؛ فلاحظا أن هناك رسالة في طريقها إليهما .. فقد اعتاد الشتاء أن يرسلها لهما في مثل ذلك الوقت من كل عام ؛ معلناً عن قدومه ليفسح له المكان .. فيبرق ويدق طبوله الرنانة ؛ فتستعد الطبيعة لارتداء فستان عرسها الثلجي ، وتستعد الطيور للرحيل تاركة الشتاء لعروسه في عناق طويل ..

بدأت رحلة الاثنين إلى الجنوب حيث الدفء ونبض الحياة .. كانا يحلقان في تحد للمسافات ... عبرا جبال وصحاري .. بينما هما كذلك ؛ إذا بأصوات قاسية لم يعتادا عليها من قبل تلاحقهما .. فاضطربا وأسرعا من طيرانهما .. لكن الأصوات أخذت تحاصرهما وتطاردهما إلى أن أصيبت هي في مقتل .. فسقطت من عليائها .. وإذا بيد صائدها تلتقطها في نشوة .. ألقى بها في نار موقدة فاحترق ثوبها الحريري الأبيض ومعها قلبه الملتاع ..

عجز عن الطيران .. لم يستطع أن يواصل بدونها .. لم تطاوعه أجنحته على الطيران .. أنه هنا حيث هي .. لابد أن تحين نهايته بنهايتها ..

ذهب لصائدها .. وقف بين يديه .. لعله يرحمه بنارها ..



عندما أدرك وفاءه رق له وأعطاه الأمان ، قدم له الطعام والشراب معتقداً أن ذلك سيلهيه عن مصيبته ..! لكنه صام عن الطعام وحرم على نفسه الماء ..
قسوته هي كل ما يريده .. هي التي سترحمه من عذابه .. حاول أن يدفعه إلى الطيران ؛ لكنه عجز حيث عجزت .. يئس منه بعد أن حاول معه طوال النهار والشطر الأول من الليل .. فتركه على أن يعود إليه في الصباح لعله يرحل ..!
حينما عاد ... لم يجده بموضعه .. سُر لذلك ..
أخذت عيناه تجوب المكان بزهو ؛ فما لبثت أن تعثرت ببقايا طائر ...
كانــت مخالــب الذئب أكثر رفقاً به من رقته .. فهي التي ألحقته برفيقته وتوأم روحه إلى الأبد .

الفهرس

الصفحة

المؤلفة في سطور

- من مواليد الإسكندرية .
- حاصلة على ليسانس آداب وتربية .
- عملت بالتدريس لمدة سبع سنوات ؛ ثم تفرغت للكتابة .
- صدر لها مجموعة قصصية بعنوان " ضجيج الصمت " .

البريد الإليكتروني :

mano_164@hotmail.com

صدر للمؤلفة:

ضجيج الصمت   مجموعة قصصية   ٢٠٠٣

دار النيـــل

للنشر والطبع والتوزيع

١٢ شـارع عبـده بدران

م. الباشـا - المنيـل - القاهـرة

ت: ٣٦٢٢٥٧٨

رقم إيداع ١٦١٧٤/٢٠٠٤

الترقيم الدولى:

٩٧٧/٥٤١٤/٨٩/٥